



متى نتأكد من أن «إعادة تأهيل» بشار الأسد قد اكتملت، وأزيل آخر العوائق من أمام استقباله إقليمياً ودولياً؟

الجواب: حين تنطلق عبوة أو رصاصة تقتل سياسياً أو صحفياً في بيروت.

اليوم، من لبنان إلى مصر إلى تونس إلى فرنسا والولايات المتحدة، فضلاً عن روسيا وإيران بالطبع، تُبذل الجهود لـ «إعادة تأهيل» الأسد. جهود دبلوماسية جبّارة تصبّ في هذه الوجهة. دماء كثيرة تُسفك من أجل ذلك. أكاذيب على شكل «أفكار» تُروّج لتمرير ذلك. «الطرق إلى القدس»، المستقيمة منها واللتفافية، تُباع بأسعار مخفضة في الأسواق خدمة لهذا الهدف.

طبعاً هناك سوابق مع بشار جرت في ظروف أقلّ دراميّة وخطورة بلا قياس، كانت أهمّها سابقة نيكولا ساركوزي التّأهيليّة. لكنّ مناخ الثورة المضادة العربي لا يكثرث بالعبر. أهمّ منها بكثير لهفة الملهوفين إلى البلايين التي تدرّها إعادة إعمار تلي إعادة التّأهيل. تهاة وانحطاط ما آلت إليهما المعارضة السورية، المسلّحة والسياسيّة، تبريرٌ مشجّع للعاملين على ردّ السوريين إلى بيت الطاعة.

لكن، لماذا سيكون الاغتيال في لبنان إشارة الانطلاق إلى المرحلة السوريّة المقبلة؟

بشار ونظامه سيّدان على هذا الصعيد – صعيد الدم. به يفتتحان تاريخهما المستأنف. ثمّ إن لم يكن الأمر اغتالات، فماذا يكون؟ ماذا في الجعبة غير ذلك؟ وعود تاريخيّة كبرى؟ طور نوعي من التنمية؟ ففزة في مجال التعليم؟ الموجود هو القتل، والنظام الأمنيّ يجود بالموجود. البراعة في القتل تتصدّر الـ «سي في» الفارغ من كلّ مزيّة أخرى. ثمّ إنّ هذا النظام تأريّ وانتقاميّ بطبيعته وبشهادة سجلّه، فكيف وهناك لبنانيّون، من «أهل القلم» ومن «أهل السيف»، يناشدونه أن يفعل: خلّصنا من العملاء والخونة والجواسيس الذين يعترضون طريقنا إلى القدس. اقتل. اقتل. والمثل الشعبيّ يقول: لا توصّ حريصاً!

وبما أنّ الثورة السوريّة صدّعت هيبة الحاكم والنظام اللذين يقومان على هيبة مفروضة بالقوّة، فإنّ في وسع الرعب الذي يثيره الاغتيال أن يردّ شيئاً من الهيبة. أن يوحى، على الأقلّ، بذلك. يضاعف الحاجة إلى مسرح دمويّ كهذا أنّ السلطة الفعلية موزّعة بين الروس والإيرانيين ومليشياتهم. إذا هذا فحسب ما يتبقّى لهم من سلطة.

لكنّ أيضاً، لبنان هو الساحة السهلة. النظام السوريّ أدريّ بشعاب لبنان وشعاب الاغتيالات فيه. خبرته هنا تفوق كثيراً خبرته في إدارة اقتصاد بلاده أو إدارة تعليمها، بل تفوق خبرته في الاغتيال في «ساحات» أخرى. سهولة الساحة اللبنانية يزيد بها واقع ازدواج السلطة مع «حزب الله». تحالف الطرفين في الموضوع السوريّ، وأخيراً، شعبية «الانتصارات» التي يحققونها، المعززة بـ «حلف الأقليات»، تفتح الدروب المغلقة. تذللّ العراقيل. تصوّب يد القاتل حين تعوجّ.

والتاريخ يشير في الاتجاه هذا. في لبنان البرلمانيّ القديم لم يكن رائجا التخوين الذي يتلوه القتل. والاغتيالات، كما نعلم، أعلى مراحل التخوين. «فليرحلوا عنا»، يقول المحرّضون على القتل، أمّا التتمة الضمنية فهي: إن لم يرحلوا عن البلد رحّلناهم عن الدنيا.

في الماضي، خلاف بشارة الخوري وإميل إدّه لم يؤدّ إلى تصفيات دموية، ولا خلاف كميل شمعون وحמיד فرنجية، أو فؤاد شهاب وكميل شمعون، أو صائب سلام ورشيد كرامي، أو كمال جنبلاط وكميل شمعون. في الزمن الاستقلاليّ، جاءتنا «ثقافة» الاغتيال من طرفين هما ابنا عمّ: الأحزاب التوتاليتارية النشأة والتكوين التي افتتحت القتل بقتل رياض الصلح، والأنظمة الأمنية- العسكرية التي افتتحت بقتل كامل مروّة.

دمشق اليوم تحضن التقليدين. لهذا فحين يُغتال أحدهم في لبنان، وحين تقطع الراديوات والتلفزيونات بنّها لنقل الخبر العاجل... قلّ: عاد بشّار حاكماً سيّداً. فبالموت سوف يبدأ العهد الجديد، بعد عيش العهد القديم طويلاً في الموت.

الحياة

المصادر: